مجلة كلية التربية - جامعة سرت
المجلد (1) العدد (1) يناير(2022)

بدايات الفكر الديني لدى إنسان ما قبل التأريخ من خلال الفن الصخري

The beginnings of prehistoric human religious thought through rock art

د. لطفية التهامي أندش
كلية الآداب/ جامعة مصراتة
lutfiya.altohame@gmail.com

أ. إبراهيم مفتاح شيره
كلية التربية/ جامعة مصراتة
Ibrahemsherashera789@gmail.com

الملخص

بدأ الإنسان يميز بين حاجاته المادية وحاجاته المعنوية، خاصة بعد الثورة الإنتاجية – ثورة إنتاج الطعام – التي عرفها وما نتج عنها من فائض الإنتاج والاستقرار في التجمعات السكنية، وخروجه لرحلات الصيد واكتشافه النار، فهذه العوامل كانت تشكل انعكاسًا كبيرًا و واضحًا على تطور الفكر الديني لديه؛ ففي أي زمان أو مكان لا يخلو الإنسان من المشاعر والأحاسيس الدينية التي صاحبته في رحلته الطويلة والتي عبر عنها بأشكال مختلفة حسب الظروف والبيئة المهيأة له.

ويعد الفن الصخري من أهم مراحل عصور ما قبل التأريخ، حيث كان الإنسان يعتقد بوجود قوى خفية تتحكم في الكون وجب عليه أن يتقرب إليها بطقوس معينة ابتدعها تعبر عن عدة مشاعر كانت تعتريه من بينها الاحترام والخوف وطلب المساعدة، وقد وجدت هذه التعبيرات على الصخور المنتشرة في الصحراء الكبرى على هيئة نقش بارز – مرتفعة على سطح الصخرة – أو يكون النقش غائرًا –أقل من مستوى سطح الصخرة – ولم تكن هذه النقوش هي الوسيلة الوحيدة التي عبر بها الإنسان القديم عن خوفه من الطبيعة بل اتخذ من أشكال الحيوانات في بيئته رموزًا عبدها، حيث كان يعتقد بأن الأرواح تسكنها خاصة أرواح أجداده، فكان لكل عشيرة رمزًا خاصًا بها يقدسونه ويحملونه معهم أينما ذهبوا.

الكلمات المفتاحية: الفن الصخري، السحر، الفكر الديني.

Abstract:

Human began to distinguish between his material needs and his moral needs, especially after the productive revolution - the revolution of food production - which he knew and the resulting surplus production and stability in residential communities, and his departure for hunting trips and his discovery of fire. These factors were a great and clear reflection on the development of religious thought; any time or place, human is not devoid of religious feelings and feelings that accompanied him in his long journey and which he expressed in different forms according to the circumstances and environment prepared for him؟ .

The rock art is one of the most important stages of prehistoric times, when man believed in the existence of hidden forces controlling the universe, so he had to approach To her with certain rituals he invented to express several feelings that he had, including respect, fear and asking for help. These expressions were found on the rocks scattered in the Sahara Desert in the form of a prominent inscription - high on the surface of the rock - or the inscription is deep - lower than the level The surface of the rock - and these inscriptions were not the only way by which the ancient human expressed his

fear of nature, but rather took the forms of animals in his environment as symbols he worshiped, as he believed that spirits inhabit them, especially the spirits of his ancestors, so each clan had its own symbol that they sanctify and carry with them wherever they go.

Keywords: Rock art, Magic, Religious thought

أسباب اختيار الموضوع.

من أهم أسباب اختيار الموضوع أن الفن الصخري يعد من أهم المصادر لدراسة ثقافات وعادات الشعوب، فهو يضاهي المصادر الكلاسيكية مثل هيرودوتس، وبليني، ديودورس الصقلي، واسترابون، – وقد يكون أوثق منها– التي من خلالها تسد شح المعلومات ونذرتها، كما إن الفن الصخري هو وليد اللغة المكتوبة.

أهمية الموضوع

تكمن أهمية الموضوع في أن الفن الصخري هو وسيلة للتعبير وتسجيل الأفكار الدينية وهو دليل مؤكد لمعرفة مستوي التكيّف الديني للشعوب، فالفن الصخري يعد أقدم وثيقة وأوسعها لمعرفة آثار النشاط الديني للإنسان القديم.

أهداف الدراسة

تهدف الدراسة إلى إعطاء صورة واضحة عن بدايات الفكر الديني لدى إنسان ما قبل التأريخ من خلال الفن الصخري

تساؤلات الدراسة

هناك العديد من التساؤلات التي تطرحها الدراسة أهمها: –

لماذا قام الإنسان الذي عاش في مرحلة ما قبل التأريخ برسم ونقش ما كان يوجد في بيئته؟ وهل هذه النقوش تعبر فعلًا عن حياته العادية؟ أم أنه بالغ في تجسيد بيئته ؟ وهل استطاع فنان ما قبل التأريخ أن يصل إلى هدفه من خلال اللوحات الجدارية التي عبر فيها عن العالم الآخر؟ وهل استطاع علماء ما قبل التأريخ أن يصلوا إلى حقيقة ما كان فنان ما قبل التأريخ يريد أن يعبر عنه ؟

المنهج المتبع

اتبع الباحثان في هذه الدراسة المنهج التاريخي التحليلي للوصول إلى الحقائق التاريخية قدر الإمكان، كما استخدم الباحثان منهج المقارنة بين الرسوم الصخرية للعديد من المواقع الأثرية.

الحياة بعد الموت.

لقد آمن إنسان ما قبل التأريخ بحياة أخرى بعد الموت، وهذا ما دلت عليه الحفريات العلمية فكثيرًا ما يعثر العلماء على مرفقات جنائزية مع الميت وظيفتها الأساسية هي استعمالها في الحياة الأخرى. وأن أولى المباني لم تكن للسكن بل كانت معالم جنائزية وهذا دليل على تقديس إنسان ما قبل التأريخ للحياة الأخرويّة التي اعتقد بها بطريقته الخاصة.

ففي المشاهد الصخرية يُعبر اللون الأبيض عن الموت، كما تعبر المشاهد التي تمثل شخصيات سابحة في منطقة اونرحات التي تقع إلى الجنوب من جبارين عن الموت، ففي المشهد الذي سماه هنري لوت باسم "السابحة ذات الصدر على الظهر"(H. lhote.1958.p120) نلاحظ وجود مبالغة في حجم اليدين قد يدل ذلك على الموت، وفي نفس المنطقة نجد مشهد المرأة الزنجية ذات الصدر المزين حيث توجد صورة امرأة متراكبة معها بلون ابيض وهي سابحة أيضا قد تكون معبرة عن الموت

وفي منطقة صفار يوجد مشهد معبر عن الحياة الاجتماعية حيث يوجد نساء وأولاد وعلى اليمين داخل دائرة نجد شخصية مستلقية على الظهر يبدو عليها السكون وفوق هذه الشخصية يوجد طفل ينتحب عليه، فهذا المشهد يعبر عن الموت.

ويوجد في منطقة اونرحات شخصيات سابحة فُسرت على أنها تمثل الشامان في رحلة بحث عن الأرواح وقد تمثل الموت أيضا. وبالنسبة للمشاهد المرسومة التي تعبر عن الموت والطقوس الجنائزية فهناك مشهد واحد تم العثور عليه من قبل الباحث موري (F. Mori) في ليبيا بالأكاكوس وهو مشهد جاء ليعزز ويقر بوجود ممارسات أو طقوس جنائزية وهي ثقافة يكون قد عرفها أهالي التاسيلي في بداية العهد النيوليتي، كما توضح تلك البقايا الموجودة في مغارة "تين هناكتن" وهي تعادل زمن مرحلة الرؤوس المستديرة، بأن اللون الأبيض يرمز للموت يمكن رؤيته بوضوح في هذا المشهد. وقد تم تأكيده على تلك البقايا البشرية التي عثر عليها في ملجأ "تين هنكاتن"، فأحد الهياكل كان قد طلي بـ (Kaolin) كاولين، ثم وضع في حفرة بعدما أن تم وضع قطعة من السلال أو سلة (une vannerie)، فالهيكل كان مستلقيا على الظهر أو موضوعا على أحد جانبيه والرجلين منطوية قليلا(Janvier 2004. Clio.Fr).

وتعد الملاجئ المزيّنة دائما بمثابة بوابات بين العالم الحقيقي والعالم الآخر، فقد كانت تقام فيها مراسيم احتفالية لتكريم الآلهة والمعبودات وكل المقدسات ويشكل وجود الإنسان فيها مناسبة للتضرع وطلب الخصوبة حيث تظهر النساء في المشاهد وهن رافعات أيديهن إلى السماء ينظرن باتجاه الإله الكبير، و يحتمل أنه كان يوجد تمثال كبير يجسد الإله في ذلك المكان، ويتم تقديم الأضاحي له، وهي غالبًا ما تكون من الحيوانات التي تعيش في الأودية أو الظباء أو بعض الطعام وتقام الطقوس باستمرار أمام تمثال الإله في "صفار"، حيث يأتي الناس من كل مكان إلى المعبد، وتوضح إحدى المشاهد الصخرية بالفعل صعود الناس إلى الجبال وهم مجموعات من الرجال والنساء والأطفال(J. D. Lajoux. 1977.pp 50-51).

كما يجسد الكاهن القَائم على الإله كل تلك المراسيم برسم جداري ضخم تكريمًا للإله ومع مرور الزمن يبقى هذا المكان مقدسا للمجموعات البشرية الساكنة حوله وحتى البعيدة عنه، ويلجأ من حين لآخر لوضع إضافات فوق المشهد تبعا للضرورة الدينية وهذا ما يفسر وجود تراكيب للمشاهد (superposition) ويميل الباحث لوروا كورهان (Andre leroi corhan) إلى القول بوجود دين للكهوف أو عبادة للكهوف باعتبارها أماكن مقدسة حيث اتفق الباحثين على اعتبار الكهوف نوعا من المقابر والكثير منها فعلا هو غير قابل للسكن وصعوبة المرور إليه ودخوله والوصول إلى الجدران المزينة مثل مغارة نيوز niause التي تقع جنوب فرنسا (بن الطيب، 2008م، ص26) أو الإخوة الثلاثة les trios frères الموجودتين بفرنسا عبارة عن متاهات حقيقية ورغم أن مناطق التاسيلي مختلفة عن أوربا فهي لا توجد بها الكهوف العميقة ذات الممرات، إلا أن العديد من الملاجئ الصخرية موجودة في مناطق جبلية صعبة المسالك مثل "صفار جبارين" وهي عبارة عن منطقة جبلية وعرة تشبه صفار، تكثر بها الجبال الصخرية ذات الأشكال الغريبة معظمها من الحجر الرملي لعبت عناصر النحت دورا كبيرا في تشكيل الملاجئ المزينة بالرسوم الصخرية التي تعود إلى مرحلة الرؤوس المستديرة ومرحلة بقريات منطقة تيسوكاي تان زوميتاك التي تقع شمال جانت.

في منطقة(إن اتينان) in- itinen ومنطقة (تين هناكتن) تتواجد الرسوم في أماكن معزولة ذات مدخل ضيق ومظلم، حيث أننا نجد تشابه بين معابد صفار وجبارين الجبلية وبين المعابد المصرية فإذا عرفنا أن المعابد في مصر هي أماكن للزيارة والتعبد ولا يحتشد فيها لممارسة الطقوس، ولا هي للكهنة يمارسون فيها الشعائر المقدسة أمام الناس، فالمعبد المصري لا يستقبل الناس بل هو تحديدًا المكان الذي يبالغ فيه بحماية وإخفاء الإله فيه، فقلب المعبد مكان سري، يتم الذهاب إليه عبر بوابات

عديدة وكلما وصلنا إلى الداخل ازداد المكان ظلمة فلا يصله إلا الكهنة المخولون بذلك وهناك يوجد التمثال المقدس للإله(الماجدي، 1999م، ص146).

إن طبيعة صفار وجبارين وتامريت الجبلية ذات الصخور الحتية– التي أثرت فيها عوامل التعرية – والتي سماها هنري لوت غابة الحجارة (foret de Pierre) تمثل كتل صخرية تتخللها الأودية، وبالنظر إلى طبيعة المناخ والغطاء النباتي في ما قبل التأريخ فهي عندئذ منطقة معزولة ومغطاة بالغابات وهي بذلك ملائمة لظهور ديانات روحانية (H. lhote 1985.P51).

إن الهدف الديني واضح من اختيار أماكن إنجاز هذه الرسوم، خاصة الصور الأقدم في مرحلة الرؤوس المستديرة _أسلوب الآلهة الكبرى والمريخيين_ وهي الأكثر تعبيرا عن الدين بالإضافة إلى أسلوب سحرة الشامان الذي يكون له الدراية في التحكم في القوي فوق الطبيعية، تنتابه حالت ذهنية شاذة كعلامات علي صلاته بالقوي الخارجة عن الكون، هذا لدى مجتمعات الصيادين،أما في المجتمعات الزراعية والحضارات القديمة فتزول فكرة الشامان ويحل محلها الكاهن آو رجل الدين الذي ينتمي إلى المرحلة المتطورة فالرؤوس المستديرة اختاروا المناطق المرتفعة كمراكز دينية لهم(M. Hachid.1998. P189).

ومن الأدلة أن الجبال بما فيها من ملاجئ صخرية كانت أماكن مقدسة يتعبد فيها الإنسان مشهد في جبارين (J. D. Lajoux.1977.pp 50 – 51) يمثل مجموعة كبيرة من الشخصيات من النساء والرجال والأولاد نتساءل إلى أين يتجه هؤلاء؟ قد يكونوا في طريقهم لإحياء مراسيم طقسية في المنطقة المقدسة التي تعودوا على أداء طقوسهم فيها، حيث سيقدمون القرابين المتمثلة في سلال الفاكهة وربما حيوانات أيضا، ويبدو أن للنساء دورًا كبيرًا في هذا المجتمع فتلك السيدات البدينات مطلعات على الأسرار الدينية وهن يقدن الجميع نحو المكان الذي يتعبدون فيه.

المعتقدات الطوطميّة

تعد المرحلة المعتقدات الطوطمية (Totemisme) من أهم المراحل الدينية التي مر بها الفكر الديني الإنساني البدائي، فالطوطمية: هي نظام ديني واجتماعي في نفس الوقت، حيث عرّفها سيغموند فرويد(sigmund freud) على أنها نظام ينوب مناب الدين لدى بعض الأقوام البدائية وهي تمثل أساسًا بالحيوانات والنباتات وحتى الجمادات (فرويد،1997،ص10-11) وعرفها الباحث (علي وافي) أنها نظام أو عقيدة مبينة على أصلٍ حيواني أو نباتي أو جماد اتخذتْه العشيرة رمزًا إلاهيًا لها ولقبًا يعرف به جميع أفرادها، ويعتقدون أنه خالقهم وأنهم من صلبه، فلا يأكل ولا يقتلْ ولا يتأذىْ(وافي، د.ت، ص8) ويرمز إلى الطوطم برسم معين أو بشكل هندسي أو مجموعة من الخطوط أو جلد حيوان أو وشم خاص(الماجدي، 1997م، ص52).

ويدرس بعض الباحثين تطور الأديان منذ ما قبل التأريخ وصولا إلى الحضارات القديمة فقد عبدت الحيوانات لذاتها في شكل عقيدة طوطمية، ثم في مرحلة لاحقة أصبح التعبير عن الجذور الحيوانية رمزيا بحيث يتم رسم الإله أو تمثاله الحيواني، أما في مرحلة الانحطاط الأخيرة فقد طغت عبادة الحيوان في حد ذاتها باعتبارها آلهة(الماجدي، 1999م، ص178).

إن الإنسان البدائي عاش في بيئته الأولى محاطا بأنواع مختلفة من الحيوانات البرية والطيور الكاسرة، التي وقف ضعيفًا أمام قوتها وهو لا يملك إلا أدوات بدائية، فتملكه ذلك الشعور الغريزي ورأى أن يقدسها خوفا منها، كما أنه أعجب بقوتها غير العادية التي يفتقر إليها هو نفسه، كما قد يكون تقديسه لتلك الحيوانات تهدئة لها ودرء لشرها، أو ضمانا لوفرة الكساء أو الغذاء(عطية، د.ت، ص3).

ويقول الباحث بيار ميتس Pierre métais "لكل فرد في الشعوب البدائية طوطمه أو الروح المفضلة لديه وفي بعض الأحيان نسميها الروح الحارسة، وقد تتخذ شكل حيوان لا يمكن أن يُصطاد أو يُقتل ولا يتم أكل هذا الحيوان"(Métais.1951. P 87) وكثيرًا من العشائر الهندية في أمريكا تقوم برسم طوطمها بطريقة الوشم على الأجسام (وافي، د.ت،ص22).

ترتبط العبادة الطوطمية بمجموعة كبيرة من المحرمات ونحن نجد الكثير منها في فن الرؤوس المستديرة، كما أن الكثير من الزينات التي نجدها لدى شخصيات الرؤوس المستديرة مثل الريش على الرأس والزوائد المختلفة والقرون وحتى الحلي والأقنعة التي يرتدونها من الممكن أن تكون رموزًا طوطمية، وقد ذكر الباحث لامينغ امبرار(A. laming empraire) أن الرموز في الرسوم الصخرية كالذيول والأقنعة الحيوانية ترمز إلى الحيوانات الطوطمية، والكائنات الأسطورية التي تمثل شخصيات إنسانية برؤوس حيوانية قد تمثل حيوانات طوطمية يحاكيها الإنسان في مظهرها (Empraire.1967.p117).

لقد فسر الباحث جيراد جاك Gerard jaquet مشهد يمثل راقصين حول بقرة في نقوش "هضبة المساك" على أنها تعبر عن طقوس لعبادة الأبقار(لخضر، د.ت، ص15) من جهة ثانية فإن وجود الكثير من التماثيل الحجرية تدل على عبادة الأبقار على حد تعبير هنري لوت،(Quellec. 2008. P53) وهذه التماثيل أكتشفها الباحثون قرب الرسوم الصخرية وفي الأماكن نفسها يوجد بقايا فخار. ويبدو أنه في مرحلة البقريات وبخاصة أسلوب اهرين تاهيلاهي بلغ الاعتناء بالأبقار ذروته فقد أصبحت مقدسة وإليها تعود أيضا هذه التماثيل(Quellec. 2008. PP54-55).

وتعتقد جانيت- اوماسب g. aumassip أن وجود تماثيل للأبقار في موقع تين هنكاتن يدل على أنها حيوانات مؤلهة(Hachid. 1998.P146) وترتبط بقايا الأبقار برسوم فريدة من نوعها في الملجأ نفسه تمثل طقوس لعبادة الأبقار تظهر فيها مجموعة من الأشخاص يحيطون بثور، كما أن إحصائيات حول الفن الصخري أظهرت أن من 6 إلى 13% من الصور في الجنوب الوهراني تمثل أبقار وترتفع النسبة إلى 20 % في وادي جرات(لخضر، د.ت، ص125) مما يؤكد أهمية الأبقار الدينية للإنسان لأن الإنسان في أغلب الأحيان كان يرسم الحيوانات التي لها أهمية دينية له.

وفي القرن الخامس الميلادي يذكر الشاعر كوريبوس إن عبادة الثور كانت منتشرة بين القبائل الليبية ويسمونه " قورزيل " الذي ولد من الإله أمون ومن بقرة وكانوا يجسدونه في بقرة يرهبون به أعدائهم في بداية المعركة ويعدونه قائد لهم في الحرب(Gsell. 1920.p144)،أما في مصر فان الإله "أبيس" apis الذي يمثل إله خصوبة الأرض تعود عبادته إلى الأسرة الأولى يمثله ثور يحمل هلال القمر على ظهره أو ببقرة تخصب بواسطة شعاع من القمر، كما جسدت الأبقار بالآلهة حتحور Hathorالتي تعطي الحياة وتحمي الموتى والتي تحولت فيما بعد إلى ربّة الخصب.

وهناك معطيات أخرى تعطيها لنا الرسوم الصخرية، فقرون الأبقار أصبحت رموزا للآلهة الأنثوية مثل" السيدة البيضاء "التي تعد ربة للخصب فهي تحمل فوق رأسها قرنين عظيمين، كما أن الكثير من المشاهد المعبرة عن الأسطورة نجد فيها شخصيات ذات قرون ونجدها دائما في وضعيات الرقص الطقسية، وهو ما يدل على قدسية الأبقار التي ترمز للقوة والغنى ويمكن أن تكون صورة عن الآلهة أو أنها ترمز إلى القرابين لدى الشعوب المختلفة (Chaix. 2004.P341).

كما نجد زوائد بين قرون الأبقار في مشاهد الأطلس الصحراوي متمثّلة أساسًا في قرص الشمس، و من الأمثلة أيضا كبش بقرص الشمس في "حجرة سيدي بوبكر" hadjra sidi Boubaker الواقعة جنوب الجلفة(.Lhote

1984.p293) فهذه الزوائد الموضوعة فوق رأس الحيوان، وكذلك وضعية المصلي التي تتخذها الشخصيات الذكرية خصوصا الموجودة إلى جانبه تدل على تقديس الكبش وارتباطه بعبادة الشمس من خلال القرص الموجود بين قرنيه، وربما يكون معدًا للتضحية من أجل الشمس الإله العلوي في بلاد المغرب في ذلك الوقت، وهو ما نجد أمثلة عنه في واد جرات بالتاسيلي؛ ولكن يتعلّق الأمر بالأبقار لأنّ مشاهد الكباش نادرة في المنطقة، حيث يدل ذلك على تقديس هذه الحيوانات واقترانها بعبادة الشمس والقمر، أما الأرويّة و الضباء فقد كانت لها مكانة كبيرة، فقد كانت الحيوانات المفضلة أثناء تقديم القرابين في مختلف الأساليب الفنية التي يمثلها الصيادون خاصة مشاهد الآلهة الكبرى و مشاهد المريخيين(Lhote. 1976 .(p750

وفق إحصائيات قدّمها "ميشال توفرو" لعدد من الملاجئ فإنّ نسبة صور الحيوانات تمثّل من 16% إلى 17% في مشاهد الرؤوس المستديرة منها 66% للأروية ذات القرون الكبيرة و33 % للظباء وهو ما يدل على أهمية هذه الحيوانات بالنسبة لهم (Hachid. 1998.PP159-161) ومن حيث البقايا الحيوانية فان 70% من البقايا الحيوانية في منطقة تين تورها الشرقية هي للأروية، كما وجدت الأروية في بقايا منطقة تين هناكتن، وهذا يدل على أنها من حيوانات القرابين .M Hachid. 1998.P218)

وهناك العديد من المشاهد التي يصعب التَّمْييز فيها بين كون الحيوان مُعدًا للتضحية به أو أن المشهد يعبر عن عبادة الحيوان، ومنها مشهد في جبارين يمثل بقرة كبيرة محاطة بشكل دائري ذو مظهر أفعوانيserpentiforme وإلى اليمين توجد ثلاث نساء في مشهد رقص طقسي فسر على أنه مشهد للتضحية بالبقرة كما أن طقوس لمس الأبقار والقفز فوق ظهورها والإحاطة بالحيوان من طرف مجموعة كبيرة من الأشخاص بعضهم يحمل عصا أو فأس قد فسر على أنها تضحية بالحيوان، وهذا ما نشاهده في صفار حيث يمكن أن يعبر المشهد على عبادة الحيوان أيضا(Farrah. 2005. P 275).

ارتباط الفكر الديني بالسحر

كان الصيد النشاط الأول الذي مارسه الإنسان في ما قبل التأريخ واستمر على ذلك لآلاف السنين ثم بدأ الإنسان في استئناس الحيوانات لينتهي به المطاف إلى الزراعة والاستقرار ثم بناء القرى والمدن. ومن ثم تغير الفن ومواضيعه مع التغيير الذي طرأ على الإنسان بتحوله إلى نشاط الرعي والزراعة.

وعند دراسة الشعوب التي لازالت إلى أمد قريب تمارس الصيد ومنها "البوشمن" في جنوب إفريقيا والسكان الأصليون في أستراليا وجزر المحيط الهادي، نلاحظ أن هذه الشعوب تعتقد بوجود الأرواح في كل مكان، وبما أن حياة هذه الشعوب لا تختلف كثيرا عن حياة الإنسان في ما قبل التأريخ، فنحن نتصور وجودها في تلك الفترة البعيدة، وهذا ما أكده الباحث(فراس السواح) مستدلًا على ذلك بوجود جثث مدهونة بالمغرة الحمراء مما يعني الاعتقاد بعودة الروح إلى الميت(السواح، 2002م، ص212) كما يذكر الباحث (مارسيا اليادا) بأنّ ما وراء الطبيعة مؤكدة في ديانة الصيادين، ومن هذه الكائنات هناك المرافقون أو الأرواح الحارسة، والآلهة من نوع كائن أعلى أو "سيد الحيوانات البرية " وهو الحامي في آن واحد للطريدة والصيادين، كما توجد لديهم أرواح الغابات وأرواح لأنواع الحيوانات المختلفة (اليادا، 1986م، ص 18).

ولقد انتشر بين شعوب الصيادين في ما قبل التأريخ الديانات الفتيشية والشامانية والروحانية (القماطي، 2033، ص ص 47-50) والتي نجدها اليوم لدى الشعوب البدائية التي تعتمد على الصيد في إفريقيا ومنها شعب "الدوغون" في مالي، فإذا كانت هذه الشعوب لاتزال تمارس هذه الديانات اليوم، فان الرؤوس المستديرة في التاسيلي من الممكن أنهم عرفوا هذه

المعتقدات وهذا ما يؤكده الباحث فرانسوا سولاهافوب (F. Soleilhavaup. 2000. Http//.www.Clio.fr.).

وعند الشعوب الروحانية تأخذ الأرواح مكانة الآلهة، حيث يحاول الإنسان التدخل في الطبيعة والتواصل معها لأنه لا يريد أن يفقد الأرواح المحيطة به، ويذكر في هذا الإطار الباحث (جيمس فريزر) الذي اختص بدراسة الشعوب البدائية في مناطق مختلفة من العالم خاصة في أستراليا أن الشعوب البدائية تحترم أرواح كل الحيوانات، لكنها تتعامل بشكل خاص مع أرواح الحيوانات المفيدة لديها أو تلك التي تمتلك قوة و حجما كبيرين (frazer. 1927.p159). كما أن المشاهد الصخرية تؤكد أن الصيادين يؤمنون بوجود قوى فوق الطبيعة تشكل عالم موازيا للعالم الحقيقي، وهذه القوى العليا هي التي تسيطر على عالمه، حيث تقول في هذا الإطار (مليكة حشيد) إن مناطق مختلفة من التاسيلي تعد أماكن مثالية لسيطرة الفكر الروحي مثل غابات الصخور في صفار(M Hachid.1998. p 169)، وتؤكد الرسوم الصخرية وجود معلم بارز ألا وهو السحر الذي تمثله الشامانية وهي في الواقع تعتمد على مفهوم روحاني وهذا يدل على وجود ديانات روحانية انتشرت وسط الصحراء (Quellec 2008 Chamans. P199)، كصورة التيتل الموجودة في وادي "تين العاشق" بمنطقة أكاكوس الذي يعد تعبيرًا دينيا بنزعة سحرية تتعلق بالخوف من شكل بعض الحيوانات، ولعل الإنسان في تلك المرحلة صورها بمسحة دينية سحرية للاستعانة بها على الصيد(مسعود، 2014، ص177).

وبالنسبة للشامانيين يتكون الكون من عالمين، فإذا كان الصيد غير وفير و إذا مرض بعض الناس أو أصيبوا فإن ذلك يعني عدم وجود انسجام بين العالم الحقيقي الذي نعيش فيه، والعالم الأخر "عالم الأرواح" فيجب استعادة التوافق بين العالمين، فينتقل الشامان افتراضيًا إلى العالم الآخر للحصول على مساعدة الأرواح وحمايتها، لذلك فعليه القيام بأعمال سحرية على حد تعبير الباحث (جون كلوت) أما بالنسبة لإيمانويل اناتي الساحر أو الكاهن هو بمثابة العالم في القبيلة في مرحلة ما قبل التأريخ (لخضر، د.ت، ص167).

ويعد (لويس ويليامز)Lewis – williams وهو مختص في الفن الصخري لجنوب إفريقيا وأحد منظري الشامانية أن الكاهن أو الشامان أو الساحر هو نفسه الفنان وأن هذه الأعمال الهامة التي ينجزها يكون في حالة نشوة، خاصة منها مشاهد الشخصيات النصف إنسانية نصف حيوانية، هذا الفنان الساحر يمثل الرؤى التي تحدث له وهو في حالة النشوة وهي تمر بثلاث مراحل. المرحلة الأولى يرى أشكال هندسية وفي المرحلة الثانية نوع من الأشكال الهندسية تتحول إلى أشياء مليئة بالحس، المرحلة الثالثة يجد نفسه في عالم ملئ بالحيوانات وأشخاص والوحوش أو كائنات غريبةmonstre ، ويعتقد الباحثان جون كلوت j.clottes و لويس ويليامز Lewis – Williams أنه يمكنهم التعرف في الفن الصخري على الأقل على مرحلتين الأولى والثالثة، حيث أن الأشكال الهندسية ومنها الدوائر والرموز اللولبية التي نجدها في الرسوم الصخرية تمثل المرحلة الأولى أما المشاهد النصف إنسانية فتمثل المرحلة الثالثة (F.soleilhavaup. 2000.).

ما يلاحظ هو العلاقة الوثيقة بين الشامانية والروحانية والسحر فهناك اتصال مع الأرواح بواسطة أشخاص يسمون سحرة أو شامانات، وبواسطة وسائل مختلفة مثل النشوةtranse ، فحالات تغير الوعي هذه يمكن أن تمكن من الاتصال بعالم غير المرئي لاستعادة التوازن والانسجام بين الأفراد(لخضر، د.ت، ص185).

عبادة الشمس والقمر

مما لاشك فيه أن الإنسان عبد مند اقدم العصور الشمس والقمر، وخاصَّة في بلاد المغرب وهذا ما أكده لنا هيرودوت أن الليبيين كانوا يقدمون القرابين للشمس والقمر، أما عن سكان الصحراء فقد ذكر هيرودوت أيضًا أن الأتارنتس Atarantes يلعنون الشمس بأقذع السباب لأنها تؤذيهم، وهؤلاء يعيشون في منطقة تبعد مسيرة عشرة أيام من أرض الجرمنت، ولعل موطنهم التاسيلي أو الهقار(Herodote. IV, 188- 184).

استمرت عبادة الشمس والقمر عند الشعوب القديمة في مختلف فترات حياته بمعبودة رئيسية وهي ربة أرضية و قمرية مرتبطة بالخصوبة، وهو ما نجده في الفن الصخري أيضا ومن الأمثلة اللافتة للانتباه مشهد في صفار، يمثل الإله الكبير الصياد، حيث يحمل سمكة من ذيلها في يده اليسرى، كما يوجد هلال كبير قرب بطن هذه الشخصية علمًا بأن هذه الشخصية كبيرة الحجم وذات قرون كذلك، وفي مشهد "السيدة الزنجية" في صفار نجدها تحمل هلالًا بكلتا يديها يرمز إلى القمر مما يشكل دليلا علي ارتباط الآلهة الأنثوية وبشكل عام المرأة مع القمر والخصوبة (لخضر، د.ت، ص901).

الآلهة الأنثويّة

تظهر النساء في مشاهد ذات أهميّة كبرى وهنّ مرتبطات خصوصا بالخصوبة ومن بين المشاهد التي يظهرنّ فيها ما يلي.-

أ- السيّدة البيضاء في منطقة أنروحات.

يمثل المشهد امرأة عملاقة مقنعة وذات زينة وبهرجة عالية، يبدو التزيين الجسدي فيشكل نقاط مشكلة على هيئة خطوط من الظهر إلى البطن بشكل مائل، وحتى الأثداء المخروطية الشكل مزينة بخطوط متقطعة، كما توجد زوائد متدلية من التنورة القصيرة التي ترتديها هذه السيدة وزوائد أخرى على الذراعين، وهي تضع في يديها ما يشبه القفاز تتدلى منه خيوط طويلة، ولها قرنان عظيمان تبلغ المسافة بينهما 52 سم، كما يوجد حول رأسها وقرناها نقاط بيضاء، وتشرف هذه السيدة على المشهد مثل الشخصيات المركزية في أسلوب الآلهة الكبرى، وتهيمن على مساحة كبيرة منه، أما الشخصيات الأخرى الصغيرة الحجم هي عبارة عن امرأة لها نفس التزيين الجسدي ونفس هيئة السيدة البيضاء لكن ليس لها قرون ومحاطة بخط دائري، كما يوجد بعض الأشخاص يعملون في الأرض وآخرون يشجعونهم، كما توجد مجموعة من النساء يؤدون رقصات طقوسية من أجل الربة العليا واهبة الخصوبة في شكل صف فهذا المشهد يمثل ربة عملاقة للخصوبة وتبدو هذه المرأة حاملا مثلها مثل الكثير من مشاهد النساء التي تظهر فيها دائما المرأة ببطن منتفخة، وقد تمثل الخطوط على ساقيها والنقاط الكثيرة حول قرونها ورأسها الأمطار.

أما الدائرة حول جسم المرأة الأخرى فهي دائرة سحرية من أجل حماية النساء، ويبدو أن هذا المجتمع في اونرحات هو مجتمع زراعي، تحظى المرأة فيه بالمكانة العليا و يتمثل دورها في أداء الطقوس، كما أن الحجم الكبير للمشهد ووجود القرون يدل على أن المرأة في المشهد هي من الآلهة الكبرى، وذلك لأن القرون تدل على السلطة والقوة(لخضر، د.ت، ص14-15) فالمشهد يعبر عن الآلهة الأنثوية وهو ما نجد أمثلة عنه في الحضارات القديمة، فقد كان الإنسان دائمًا يجسد معبوداته برسمها أو بنحت التماثيل لها وذلك حتى تكون الآلهة قريبة منه فيشعر بها ويتضرع إليها (hachi. 2003.p137).

وتعد التماثيل الإنسانية المكتشفة في التاسيلي دليلا على ذلك، فهي تجسد الآلهة على هيئة إنسانية لاعتقاده أن الآلهة في الأصل كانوا أشخاصا، وهذا كان منتشرا في العصور القديمة، حيث يُذكر أن "الآلهة كانوا في الماضي البعيد رجالا بارزين بين الناس وكانت لهم مكانة ممتازة في حياتهم قام الناس بتقديسهم بعد مماتهم" ((السواح، 2002م، ص204) فمشهد السيدة

البيضاء يعبر عن آلهة الخصوبة الأنثوية، وترتبط المرأة عند العديد من الشعوب بالأرض الخصبة حيث الأرض تصورها آلهة أنثوية في صورة امرأة بدينة، فالولادة التي هي أهم خصائصها لها علاقة بالأرض الخصبة (الماجدي، 1999،ص، ص 82 – 83).

ب– الربات ذات رؤوس الطيور

هذه التسميّة أطلقها هنري لوت على مشهد مرسوم في منطقة جبارين بالتاسيلي، ووجود هؤلاء النسوة بهذا المظهر وبرؤوس الطيور يدل على أنهن يمثلن آلهة وغالب الظن أنهن يمثلن الخصوبة(Lhote.1958.P12).

والمشهد الثاني في نفس المنطقة عنونه هنري لوت باسم "مشهد إهدائي" يمثل الكثير من الشخصيات الأنثوية والذكرية المقنعة برؤوس الطيور في مشهد طقوسي وحولهم نباتات أو سنابل(الشكل رقم 5)، كما يوجد رمز أفعواني ذو رأسين، وفي الجهة اليمنى من المشهد يوجد رمز الهلال، يدل مظهر هذه الشخصيات على أنهم آلهة أو كائنات أسطورية (Lhote .1958.P80.).

ج – الإلهة أتينا

هذه التسمية أطلقها هنري لوت على مشهد في منطقة جبارين، وقال عنها أنها ربة ليبية اتخذها الإغريق آلهة لهم باسم "أثينا" وتعد مشاهد النساء ذات الزينة العالية والمظهر الجمالي دليلا على الذوق الفني الرفيع لهؤلاء الأقوام، فلا يمكن للصيادين الذين يقضوا يومهم بأكمله في المطاردة والبحث عن الحيوانات، وأن تكون لهم مثل هذه الاهتمامات فهؤلاء أناس أطمأنوا على معيشتهم منذ زمن، وراحوا يجسدون شغفهم بالفن في هذه اللوحات التي تمثل آلهتهم، ومن خلال ملاحظة الكثير من مشاهد الرسوم يمكن القول أن هؤلاء أقوام مزارعون وهم يُذَكِّرُونَنَا بالأعمال الفنية الرائعة التي ظهرت في الحضارة الهلينية والتي تجسدت على الخصوص في أعمال النحت التي تظهر فيها افروديت في شكل امرأة عارية تمثل آلهة أنثوية للخصوبة(Lhote.1958.P80).

الآلهة الذكوريّة

تظهر الآلهة الذكرية ذات شخصيات مركزية في العديد من المشاهد، والتي من أهمها.–

الإله الكبير في منطقة صفار، يوجد في المشهد الأصلي الإله الكبير والمصليات والحيوانات، ومن الممكن أن مشاهد الشخصيات الصغيرة في الأسفل قد تمثل الأولاد، ويدور المشهد حول الشخصية المركزية، أما هؤلاء النسوة فهن يطلبن من الإله الكبير أن يمنحهن الأولاد، فأيديهن مرفوعة بالدعاء لأن تكون ولادتهن سليمة وأن يعيش أولادهن في كنفهن طويلا، أما الحيوانات التي تظهر في المشهد فتمثل القرابين التي تقدم للإله الكبير، وحيث أن إحدى هذه الظباء قد رُسم مقلوبا ما يدل على انه تم التضحية به فعلا، أما الظبي العملاق فهو أنثى حاملا، الصورة رقم (7) و إلى جانبه صورة المرأة في وضعية أفقية تمثل الولادة، فهذا المشهد يعبر عن خصوبة النساء وتكاثر الحيوانات (لخضر، د.ت، ص131).

تقول مليكة حشيد (M. Hachid) عن هذا المشهد أنه يمثل أحد أقدم الأساطير، فالمرأة والحيوان يمثلون وحدة رمزية لخصوبة الحياة وهو يعبر عن أسطورة بدء الحياة(M. hachid.1998.p 165.)

الخاتمة

من خلال هذه الدراسة توصل الباحثان إلى عدة نتائج يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:–

- اعتقاد إنسان ما قبل التأريخ بالحياة الأبدية بعد الموت فبنى لتلك الحياة المنازل الفخمة ليسكنها في حياته الأبدية.

- صوّر إنسان ما قبل التأريخ في مناطق التاسيلي خروج الروح من الجسد كأطياف ساكنة تشبه صورة الميت لتنقله إلى الحياة الأخروية.
- صوّر الإنسان القديم الملاجئ على أنها بوابات يعبر منها إلى العالم الآخر ففيها تقام الاحتفالات الدينية لتكريم وتقديس الآلهة وفيها يتم التضرع إلى الآلهة الكبيرة.
- مارست النساء الطقوس السحرية طلبًا للخصوبة.
- اتخذ الإنسان القديم الكهوف أماكن مقدسة ولدفن موتاه وللعبادة فظهر ما يعرف بدين الكهوف.
- كان الكُهّان والسحرة من رجال الدين هم المتحكمون في مجتمعات الصيادين والمجتمعات الزراعية في الحضارات القديمة.
- كان للمرأة دورٌ كبير في المجتمعات القديمة صوّرتها الرسوم الصخرية يمشين أمام الجميع لتوجيههم نحو مكان العبادة.
- خوف الإنسان من الطبيعة ومما حوله من مخلوقات ووقوفه عاجزًا أمام قوتها فقام بتقديسها فظهر ما يعرف بعبادة الطواطم على شكل حيوانات فعبدها الإنسان درءً لشرها وجبًا لخيرها.
- لاتزال كثير من الشعوب إلى يومنا هذا تمارس السحر في عمليات الصيد كشعب البوشمن والسكان الأصليون في أستراليا وجزر المحيط الهادي لاعتقادهم بوجود الأرواح في كل مكان وهذه الأرواح هي التي تحمي الصيادين وتعينهم على الإمساك بالطريدة.
- انتشرت بين شعوب الصيادين ما قبل التأريخ العديد من الديانات مثل الفتشية والشامانية والروحانية والتي لاتزال موجودة عند بعض الشعوب في أفريقيا.
- ارتبطت المرأة عند بعض الشعوب القديمة بالأرض الحصبة حيث صورتها تلك الشعوب على هيئة امرأة قديمة التي من أهم خصائصها الولادة لذلك كانت علاقتها وثيقة بخصوبة الأرض.
- يمثل الفن الصخري نمط حياة المجتمعات البدائية ودليل على أن هذه المجتمعات عرفت حياة الاستقرار التي من أهم مظاهرها الزراعة.
- هناك عدة مدلولات للنقوش والرسوم الصخرية منها ما هو سحري ديني صرف، أو لغرض تعليمي، أو لإشباع الناحية الجمالية عند إنسان عصور ما قبل التأريخ.

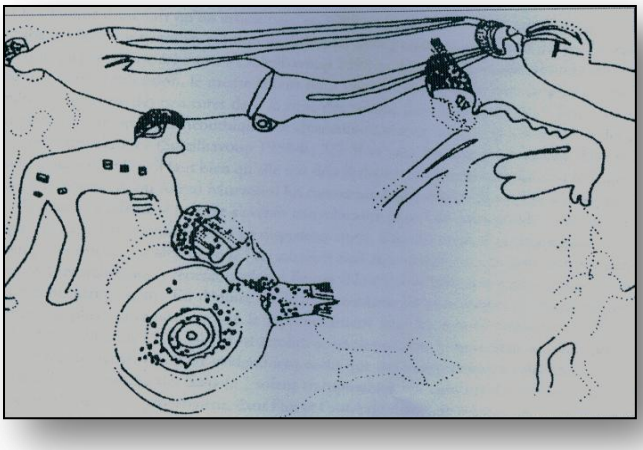

الصورة رقم (1) منطقة اونرحات شخصيات سابحة فسرت على أنها تمثل الشامان في رحلة بحث عن الرواح وقد تمثل الموت أيضا (H lhote.1958. p88)

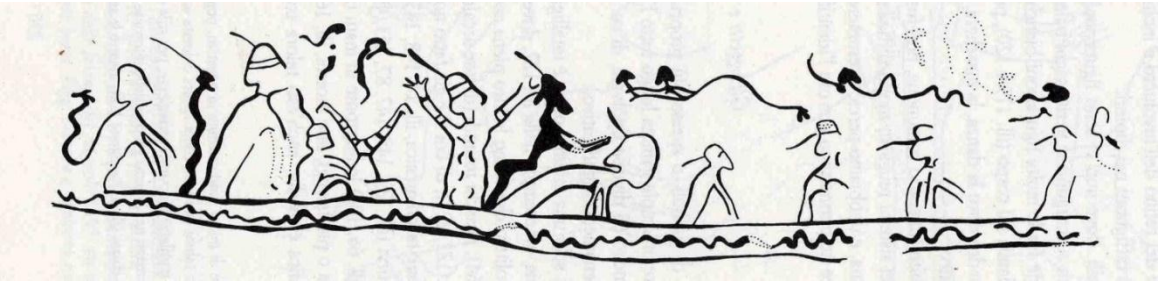

الصورة رقم(2) مشهد الدفن عند أهالي الأكاكوس أثناء مرحلة الرؤوس المستديرة (لخصر، د.ت، ص 267).

الصورة رقم (3) مشهد الساحر في منطقة صفار(Quellec 2006. p239)

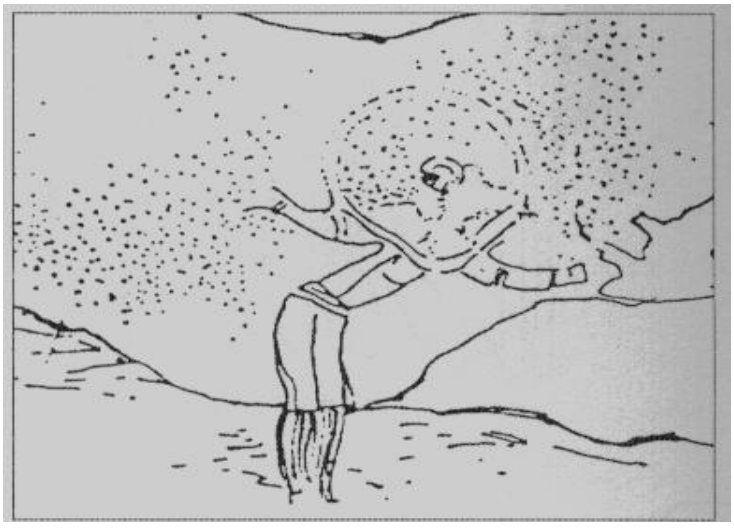

الصورة رقم (4) السيدة البيضاء في منطقة أنروحان،(Quellec 2006. p122)

الصورة رقم (5) الآلهة ذات رؤوس الطيور (لخضر، د.ت، ص216).

لصورة رقم (6). الإلهة أتينيا ربة الحب و الجمال في منطقة جبارين (لخضر، د.ت، ص219).

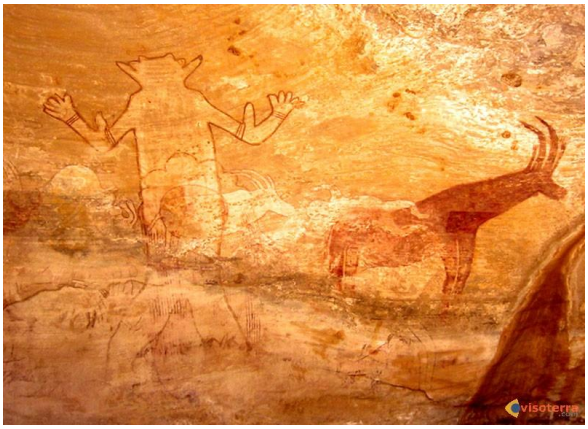

الصورة رقم (7) (M hachid.1998.p 164)

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: المصادر والمراجع العربية

- السواح. فراس ،دين الإنسان، دمشق، دار علاء الدين، ط 4 2002م.
- القماطي. هنية مفتاح، الفكر الديني القديم، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 2003 م.
- الماجدي. خزعل، الدين المصري، الأردن، دار الشروق،1999م.
- الماجدي. خزعل، المعتقدات الكنعانية،عمان،دار الشرق،1997م.
- إليادا. مارسيا، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية،ج1، ترجمة. عبد الهادي عباس، سوريا، دار دمشق، 1986م.
- بن الطيب. نصر الدين، تاريخ الفن من العصر الحجري إلى العصر الغوتي، الجزائر، منشورات الريشة الحرة،2008م.
- تشرني. ياروسلاف، الديانة المصرية القديمة، ترجمة أحمد قدري، دار الشروق، الأردن 1996م.
- عطية. كحيل البشير، الطوطمية وتقديس الحيوان لدي الإنسان المغاربي القديم،الجزائر.
- فرويد. سيغموند، الطوطم والحرام،ترجمة، جورج طرابيش، بيروت، دار الطليعة 1997م.
- لخضر. بن بوزيد، الطاسيلي آزجر في ما قبل التأريخ والمعتقدات والفن الصخري، جامعة محمد خيضر، بسكرة الجزائر.
- مسعود. فايز أنور عبدالمطلب، الفن الصخري في إقليم فزان في مرحلة الصيد والرؤوس المستديرة، المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التأريخية، 2014م
- وافي. على عبد الواحد، الطوطمية أشهر الديانات البداية، مصر دار المعارف د.ت.

ثانيًا المصادر والمراجع الأجنبية

- A laming empraire (1967) laLeolithique, Methode et Applicationsm, Paris. Edition picard.
- Abdelaziz Farrah, 2005, L,algerie Civilisations Anciennes Du Sahar ,Algérie; Edition ANEP.
- Gsell St,(1920) H.A.A.N. T1,Paris,Libraire Hach ette
- Hachid.M (1998) tassili-n-Ajj er au source de l, his toire il ya So siecle Avant les pyramides, France; Edition paris- Mediterranean
- Hérodote (1948) histoires, trad. par E Legrand, paris.les belles Herodote IV
- J- L Le Quellec (2008) «A Propos Les Molettes Zoomorphes Du Sahara Central», Sahara.No19, 2008. P53
- J.D. Lajoux (1977), Tassili-N-Ajjer. Art Rupestre Du Sahara Préhistorique Paris. Edition Duchenne, 2°Ed,
- Jean Clottes(2004) «L'art Rupestre Et La Chamanisme » Les Lettres De Clio, Janvier 2004 www.Clio.F.
- Jemes george frazer(1927) tabou et les périls de l'ame, trad. Henri peyre, librairie orientaliste Paul Gauthier, paris
- Lhote. H (1958) A la découverte des fresques de tassili.. Paris, Arthaud
- Lhote. H (1976) les gravures rupestre de l'oued décret, 2vol, mémoire de CRAPE, n°25

- Lhote. H (1984) Les Gravure es Rupesies De L'atlas Saharien Monts Des Ouled Nail Et Region De Djelfa, Algerie. Office Du Parc National Du Tassili p293, fig. 69.
- Louis Chaix (2004) «les bœufs africaines à cornes déformées», l'anthropozoologicaT39,n°1.
- Pierre Métais (1951) « Essai Sur La Signification Du Terme (Totem)», R. H.R, 1951 Vol.40, n°1.
- Slimane hachi (2003) aux origines des arts premiers en Afrique du nord, les figurines et objets modeles d'afalou CNRPAH,2003
- Soleilhavaup. F (2000), L'art Rupestre Du Tète Ronde Aux SourceDe L'animisme Africaine, Les lettre de clio, 2000. Http//.www.Clio.fr.
- www.clio.fr.lettres de clio, septembre 2000.